مستويات الفهم في خطاب الشرح الصوفي

مقاربة تأويلية في الشرح الإشاري عند أحمد بن عجيبة

أ نادية خميس

جامعة الحاج لخضر باتنة

الملخص

تموقعت الحكم العطائية بين أفقي فعل القراءة وفعل التحقق، مولدة قرارات كثيرة عبر حشود قراء التفوا حول هذا الخطاب، وراحوا يزيلون عنه حواجز عدم الفهم، كلٌّ حسب أفقه، وخصوصية فهمه بأسئلة متباينة حول قيمتها الجمالية، وسماتها، ودواعي ظهورها وعلاقتها بالأفق المتداول. إن فعل التلقي الذي أثبته خطاب الشرح عند "أحمد بن عجيبة" يرمي لخلق عالم ما بعد الفهم الذي يستحيل إلى عوالم ما بعد التأويل.

Résumé

Nous enregistrons dans cette étude l'existence de plusieurs interprétations d'AL Hikam AL At – iya à travers les siècles. Ainsi, entre l'acte de lire et l'acte de comprendre, tout un public de lectorat s'est construit chacun selon sa propre réception. Ce qui nous retient, dans cet article, l'interprétation de l'esthétique de la réception chez le soufi marocain Ahmed Ibn Ajiba, dans son discours d'explication, qui a pu consolider une nouvelle perspective, au-delà de la méta interprétation, visant la méta compréhension.

ـ مستويات الفهم في خطاب الشرح الصوفي

ـ مقاربة تأويلية في الشرح الاشاري عند أحمد بن عجيبة

تسعى هذه المقاربة إلى الكشف عن مستويات الفهم في واحد من أكثر الخطابات الصوفية التي أوجدت حولها حشدا من القراء/القراءات الفاعلة منذ

القرن 8 الهجري إلى يوم الناس هذا وأقصد بها الحكم العطائية للشيخ العارف "ابن عطاء الله السكندري* (ت 709هـ).

1-حكم ابن عطاء الله من فعل التحقيق إلى فاعلية التحقّق

صاغ ابن عطاء الله السكندري حكمه (265 حكمة) صياغة عمادها تربية النفس وتزكيتها، فغدت أقوى دستور تربوي صيغ في القرن السابع الهجري على حد تعبير أحمد عز الدين خلف الله " الحكم العطائية دستور للتربية الإسلامية أولا وأخيرا، صاغه أحد الأئمة المجتهدين في عبارات سهلة جزلة رائعة وإشارات جامعة مانعة حتى صلحت كل عبارة منها أن تكون موضوع رسالة لدرجة الدكتوراه في التربية أو علم النفس التربوي طبقا للمعنى الذي تدور حوله، وقل مثل ذلك في التوحيد والأخلاق وغيرها من العلوم الأساسية في التربية الإسلامية"[2].

إن طبيعة السياق العرفاني الذي أفرز هذه الحكم، جعل منها خطابا ذا طبيعة حركية وجذب للقراء نحو آفاقه، فجعل القراءة نشطة، والتفاعل فعالا استنادا إلى فعل المشاركة المؤسس على مقصد ابن عطاء الله المؤسس على مدلول جامع جوهره التوحيد "الأعمال صور قائمة، وأرواحها وجود سر الإخلاص فيها"[3].

*هو الإمام الملقب بتاج الدين أحمد بن محمد بن عطاء الله، الاسكندري مولدا (658) القاهري إقامة ومقاما ، جمع بين علمي الظاهر (الفقه) والباطن (التصوف) ، فبرز فيهما، تلقي السلوك والتزكية على يد عالمين جليلين جمع كل منهما بين ضوابط العلوم الشرعية وأصول التزكية، وهما الشيخ أبو العباس المرسي (686هـ) والشيخ أبو الحسن الشاذلي(ت656هـ) الذي يعد المرجع الأول في الطريقة الشاذلية.

[2] أحمد عز الذين خلف الله، كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري، دار الوفاء للطباعة والنشر، مصر ط2، 2005، ص173.

[3] ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، بيت الحكمة للنشر والتوزيع، الجزائر ط2، 2010، ج10، ص8.

وهو جوهر يرمي بدوره إلى تشكيل وعي قرائي أساسه إعمار علاقة الإنسان بخالقه عز وجل، وكذا رد فعل المتلقي استبصارا للخروج بتجربة تثري خبراته وتوسع آفاقه.

لقد أفلحت الحكم في إثارة أفكار متلقيها بدءا بالإطار المبدئي الشكلي المتمثل في اللغة أو ما يطلق عليه " انغاردن" المظاهر الخطاطية، وصولا إلى العمق الدلالي أين ستتولد علاقة تفاعلية حوارية "يجاوز النص فيها نفسه ممتدا في القارئ والقارئ يخرج عن ذاته ممتدا في النص"[4] ما يُوَلِّد تفاعلا ديناميكيا، يتطور فيه فعل القراءة (فعل التحقيق) إلى فعل تحقق حيث يرقى بواسطته المتلقي إلى مستوى إنتاج الموضوع الجمالي كما يقول ايزر[5].

هذان الأساسان الحركيان سيخلفان من حولهما نشاطا فعالا عبر التاريخ، يتحول بفعل المتلقيات إلى فعل فاعل، فهما ووعيا، بردود أفعال تعددت وتنوعت عبر سيرورة من القراءات وازت في كثير منها الفعل الجد الجمالي الكامن في هذا الخطاب، فتشكل تاريخ التلقي/ تاريخ الجمالية عبر جملة من القراءات وسلسلة من المتلقيات بدءا من القرن الثامن الهجري إلى يوم الناس هذا.

والمتمعن في حشود القراءات التي تكوَّنت حول الخطاب الحكمي، يجد أن عدد الشُّراح يزيد عن الخمسين شارحا، بعضهم له أكثر من شرح إلى أربعة شروح، أما الإمام أحمد زروق فقد بلغ عدد شروحه ثلاثين شرحا، فيكون بذلك عدد الشروح أكثر من عدد شراحها[6]، تتفاوت درجة التفاعل عندهم بتفاوت درجات الوعي على المستوى السيوسيو– ثقافي، وكذا باختلاف آفاقهم القرائية،

[4] نادر كاظم، المقامات والتلقي بحث في أنماط التلقي لمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 2003، ص19

[5] فولفانغ ايزر، فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب، ترجمة حميد الحمداني وجيلالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس- المغرب

[6] ينظر عز الدين خلف الله، كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري، ص197

وارتباطها بنسبة الدهشة على مسار التلقي عبر التاريخ الزمني الطويل، والذي يمكن إجماله في ثلاثة أزمنة حسب ياوس[7]، تتقابل مع ثلاث فئات من القراء.

1-1. زمن التلقّي الجمالي:

هو التلقّي الذي زامن عصر المؤلف وعادة ما يقترن بدهشة وبداية تأسيس الأفق الجمالي، ولعل أول من تحقق بهذا شيخ ابن عطاء الله ومؤدبه الشيخ أبو العباس المرسي (ت686هـ) حيث علق على حكمه بقوله " يا بني، لقد أتيت في هذه الكراسة بمقاصد الإحياء يقصد(إحياء علوم الدين للإمام الغزالي) وزيادة"[8].

2-1. زمن التأويل اللاإرجاعي:

قام فيه المتلقون/الشراح بتبرير هذه الدهشة(دهشة زمن التلقي الجمالي) بوعي ترجموه بقراءات استرجاعية شارحة تارة، ومؤولة تارة أخرى. ويمثّل هذا التلقّي جماعة من الشُّراح ينطبق عليهم مصطلح "ستاليني فيش" الجماعة المفسرة، ويمثلها التلقِّي القديم للحكم.

والحديث عن الشروح القديمة هو حديث عن ثلاث بنى شارحة توحدت مقصديتها في ضبط بنية الفكر العطائى ضبطا آنيا من الداخل عبر فضاء معرفي يؤطرها وفق علاقة اختلافية/ائتلافية تنظمها من الداخل خطابات شارحة جزئية، أسست لنمط قرائي حقق الوحدة عبر التعدد، والائتلاف مقصدا وغاية لوجوه الاختلاف.

وسيشكل شرح ابن عباد النفري (ت792هـ) الموسوم بـ"غيث المواهب العليّة في شرح الحكم العطائية"، وشرح أحمد زروق (ت899 هـ) الموسوم بـ"قرة

---

[7] H.R.Jauss, Pour une hermeutique littéraire trd de L'allamemd par – ( ) Maurice Jacob, paris, 1988,p360.

[8] ( )- أبو الوفاء التفتزانين ابن عطا الله وتصوفه، مكتبة الأنجلو المصرية،ط2، 1969، ص79.

العين" وكذا شرح أحمد بن عجيبة (ت1224هـ) الموسوم بـ"إيقاظ الهمم" بمرجعية تأصيلية ذات أبعاد فكرية، ترجمت تواصلا فاعلا مَدَّ عمر المشروع العطائي تفاعلا وتفعيلا عبر سلسلة تلقيات تنوعت بين التذوق والتحقق والتحقيق.

3-1. زمن القراءة التاريخية

زمن منفتح على قراءات متلاحقة تحتكم إلى آفاق متلقيها في سيرورة من التفاعل المشروط بمقولات تأويلية متقادمة ومتجددة في آن واحد[9].

2- خطاب الشرح عند أحمد بن عجيبة: من قراءة الشرح إلى قراءة التأويل

2-1. أحمد بن عجيبة: الشخصية ومجال التأليف

أحمد بن عجيبة (1224-1160هـ) واحد من ألمع الشخصيات المغاربية علما وتصنيفا، وهو واحد من الشخصيات التي سجلت حضورا مميزا في عصر "اتسم بشيء غير قليل من الاضطراب السياسي والاجتماعي والاقتصادي، بحيث لا نغالي إذا قلنا إن توالي الأزمات السياسية والنكبات الاقتصادية والجوائح الطبيعية كان هو القاعدة التي تعوَّد عليها المغاربة"[10].

والدارس لسيرة الرجال لا يلبث أن يسجل ذلك النوع من القلق الوجودي الذي دفعه إلى معانقة هموم التفكير والتأمل والمراجعة النقدية، متخذا من تدارس العلوم المتداولة سلما لتلك المعانقة الفكرة والمعاناة الوجودية[11]. متخذا من رجالات المدرسة الشاذلية* أنموذجا من حيث ربط العلم بالممارسة والالتزام بذلك،

---

[9] ينظر إدريس بلمليح. المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عن العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام. كلية الآداب. الرباط، ط1، 1995،ص 289

[10] عبد المجيد الصغير، ماذا بقي من فكر ابن عجيبة، أعمال ندوة الشيخ أحمد بن عجيبة المفكر والعالم الصوفي منشورات ابن عجيبة ندوة الشيخ احمد بن عجيبة المفكر والعالم الصوفي، مشنورات جمعية تطوان، المغرب، ط1، 2006، ص19

[11] المرجع نفسه، ص20

(*)- نسبة إلى أبي لحسن الشاذلي (593-665هـ) المغربي الأصل، التونسي نسبة (شاذلة) الاسكندري إقامة ومقاما

خلافا لما وجد في عصره (عصر الانحطاط) من تقليد للقدامى، معتبرين "علم القدامى علما ناصجا لا يمكن تجاوزه بالزيادة أو الاعتراض، أو التعديل، وهي قناعات تترجم العقلية الثابتة السائدة آنئذ"[12]، وهي قناعة دفعت بابن عجيبة إلى قناعة مضادة، وتبرّم من علماء الظاهر الذين يدَّعون ألاَّ فهم صحيح للنصوص إلا فهمهم، معلنين في الوقت ذاته حربهم على التصوف، الأمر الذي دفع بابن عجيبة إلى مواجهة مركزيتهم بخطابات مناهضة، ومقايضة، حتى بفضح عدم فهمهم بشعاره الذي رفعه "خرق العوائد ومحاربة عدم الفهم".

ولعلها القناعة التي دفعت ابن عجيبة إلى الاتجاه نحو الشرح أكثر من التصنيف، إيمانا منه أن في شرح المتون الصوفية، إفصاحا وبيانا لفكر القوم، ومن ثم كسر حواجز المنع التي سَيَّجَت هذا الخطاب، وعزلت فعل التواصل معه.

لقد كان خطاب الشرح العجيبي في ظل هذه الإيديولوجية (مواجهة عدم الفهم)، أقرب إلى خطاب نقدي منه إلى خطاب شارح، وهو ما يمكن أن نطلق عليه الخطاب"الميتا شرح".

2-2. خطاب الشرح ومواجهة عدم الفهم:

سجلت المصادر التي أرّخت لابن عجيبة عن نموذج شخصية اتسمت بقلقها الفكري إزاء واقعها وما يرضخ له معاصروه من مظاهر عبث وتسيب، بل من حياة تقليد وطابع سكوني وثوقي ارتضوه وسكنوا إليه.

عاش ابن عجيبة وسط هذا المناخ وهو يجد حرجا، ويضيق ذرعا، ما حمله أن يخوض تجربة عميقة لا ترضى عن الواقع المعطَى، وتحمل هَمَّ التغيير، رغبة في تعميق الوعي بالوجود الإنساني وتحقيق ذلك ممارسة وعملا.

[12]( )- حسن عزوزي، الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التسفير ، مطبعه فضالة، المغرب، ط1، 2001، ص53.

جاء في الفهرسة "جلست بجامع القرويين أذكر الله، وإذا برجل يمشي بين السواري، ويقول لا إله إلا الله انصرف السوق، فقلت له بقي الحي الذي لا يموت، فقرب مني وقال صدقت، ثم قال لي: ألفت كتابا فقلت فيه قال فلان قال فلان، وهل حصلت شيئا؟ ثم قال: إذا تم شيء قل أنت من عندك، ففهمت أنه يعرض بي لأنني كنت مشغولا بالتأليف وكنت أنقل كلام الناس كثيرا ، فنبهني إلى استعمال فكرتي حتى أستخرج ما عندي"[13].

لقد كان لهمس هذا الرجل الأثر في نفس طلعة لا ترضى بما رضي به غيرها، تطمح في استعادة الذات وإسعاد الذوات، فلم يجد له ملاذا إلا بالتوجّه إلى الله تعالى ثم انكبابه على العلم، إلى أن وقع على كتاب الحكم العطائية الذي فتح له آفاق البعد التواصلي، والعمق الإنساني، حيث تتحقق إنسانية الإنسان كلما ازداد ارتقاء وعرج رقيا في صلته بالله علما وسلوكا، يقول ابن عجيبة " وسبب انتقالنا من العلم إلى العمل أني وجدت نسخة عن حكم ابن عطاء الله عند بعض الأصحاب، فنسختها ثم طالعت شرح ابن عباد، فلما طالعته زهدت في العالم الظاهر، وانتقلت إلى العبادة والتبتل"[14].

إنه التواصل الإنتاجي بين حكم متى وقعت فعلت، وبين غراس طيب آتى أكل بذره، إنه التفاعل بين النص والمتلقي بلغة ايزر، والذي سيولد استجابة تتعالق مع أفق تجريبي إجرائي، تتحول بمقتضاه فكرة الاستنكار والتبرم من علوم الظاهر(أفق الظاهريين) إلى تلق ارتقائي، حيث كان التخلي (زهدت في العلم الظاهر) ثم التحلي وانتقلت(إلى العبادة والتبتل)، ثم بعد ذلك التجلي الذي لاحت بوارقه من أفق اكتنز تجربة إنتاجية لكل من ألقى السمع وهو شهيد.

---

[13] أحمد بن عجيبة، الفهرسة ،تح عبد المجيد صالح حمدان، دار الغد العربي القاهرة، ط1، 1990، ص73-74

[14] المرجع نفسه، ص40

2-3. إيقاظ الهمم: خطاب المقدمة وبيان المنهج

لقد وجد ابن عجيبة في حكم ابن عطاء الله مشروع الإنسان الكامل؛ إنسان يعيش بهمة المعايشة الإحيائية: " لا تتعدَّ نية همتك إلى غيره فالكريم لا تتخطاه الآمال"[15]، معايشة يكون لسان الحال فيها: " ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها وإنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها...يعني –القول لابن عجيبة– أنه يعرف كيف يمسكها ولا يشتغل قلبه بها؛ بحيث يكون أخذها بالله ومن الله ويدفعها بالله وإلى الله"[16].

لذلك اتخذ ابن عجيبة من شرح هذه الحكم مرتكزا لتمرير مشروعه الإحيائي الذي رام به رفع حواجز عدم الفهم للخطاب الصوفي، ومحاولة بعث هذا الأخير بوجهه اللائق به، حيث العمل ثمرة للعلم، وفعل التزكية مقصدا في طريق السير "لا يخاف عليك أن تتلبس الطرق عليك، وإنما يخاف عليك من غلبة الهوى عليك"[17].

واستنادا على مقصدية الإفهام هذه، رام ابن عجيبة في خطاب المقدمة التدليل على المستويات الخطابية التي تتواءم ومستويات الوعي عند المتلقين. والتي وظفها كبعد إجرائي في متنه الشارح، كما سنبينه فيما بعد.

2-3-1. المتلقي ومستويات الوعي في خطاب المقدمة

إن المستقرئ لخطاب المقدمة كأول عتبة يجد أن ابن عجيبة من منطلق مقصديات الشرح التي رام بها رفع حواجز عدم الفهم عن الخطاب الصوفي كخطاب تربية وتزكية، يوجّه المتلقي إلى مراتب خطابية تتنوع بتنوع الوعي

---

[15] ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ج38، ص15

[16] أحمد بن عجيبة، من الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية، المكتبة التوفيقية، مصر،ج1،ص79.

[17] ابن عطا الله، الحكم العطائية ، ج107، ص30.

القرائي للمخاطبين (أهل الظاهر، أهل الباطن، عامة المتلقين) وهو في ذلك لم يكن بدعا عن الصوفية الذين تلونت طرائق خطاباتهم استنادا إلى وعي المتلقي وتحققه، يقول ابن عباد في شرحه للحكم "... لأنّ المخاطبين موسومون بالفقر والحاجة إلى المعنى ما يستمعون إليه من المواعظ والحكم وهو قوت قلوبهم وغذاء أرواحهم لا يصلح لواحد منهم من العبارات التي تتضمن وجود القوت المعنوي ما يصلح للآخر لاختلاف مذاهبهم وتباين مطالبهم"[18].

والاختلاف الذي أسس عليه ابن عجيبة فعله التواصلي مع متلقيه يوضحه في قوله: " ولقد طلب مني شيخنا العارف الواصل والكامل سيدي محمد البوزيدي الحسني، أن أضع عليها شرحا متوسطا بين المعنى ويحقق المبني فأجبت طلبته وأسعفت رغبته رجاء أن يقع به الإمتاع ويعم به الانتفاع الخاص والعام فيكون معراجا وسلما للارتقاء"[19].

فالشرح إذن: جاء استجابة لطلب شيخه، فهو وسيلة من وسائل الارتقاء الصوفي ينتفع بها الخاص والعام عن طريق فتح مغاليق الحكم للمتلقي. ففي الإمتاع والانتفاع فعل تواصلي جمالي لحكم وصفها ابن عجيبة: "بأنها مواهب لدنية وأسرار ربانية، انطلقت بها أفكار قدوسية وأسرار جبروتية"[20].

وعليه فالمرتبة العرفانية التي نطقت بها الحكم العطائية كفعل تحقق لن تؤتي ثمرة تحقيقها عند المتلقي /المخاطب، إلا إذا تحقق بوعي سلوكي موجه لدرجة فهم عن خطاب أسس على دعامتين أساسيتين:

أ- تجديد معالم الطريق الموصل لمعرفة المولى عز وجل، يقول ابن عطاء الله "وصولك إلى الله، وصولك إلى العلم به، وإلا فجل ربنا أن يتصل به

[18] محمد بن عباد النفري. غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، تح: عبد الله سليم الاختيار. دار الكتب العلمية،بيروت، ط2، 2007، ص224

[19] أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص 24

[20] المصدر نفسه ، ص24

شيء أو يتصل هو بشيء"[21]، ويكون ذلك عبر تجربة روحية قائمة على ثنائية (المقام/الأحوال) في رحلة " يقطعها العبد نحو ربه، ويفي خلالها بما عليه ومرحلة يقبل فيها الله على عبده، فيهبه ماله من الجزاء والقرب"[22].

فيكون الخطاب بذلك موجها إلى:

1- فئة السائرين أصحاب البدايات

2- عامة الناس من المتلقين

3-أصحاب الظاهر الذين لم يبرحوا حدود الظاهر

ب-أ ما الركيزة الثانية، فتعد حجر الزاوية في طريق السير، وأعنى بها أخلاقيات السائر وسلوكياته، يقول ابن عطاء الله: " متى رزقك الطاعة، والغنى به عنها، فاعلم أنه قد أسبغ عليك نعمه ظاهرة وباطنة"[23].

وهي مرتبة يتحقق بها السائرون الذين وصلوا إلى النهاية وهم أهل البقاء، علما "أن السير في الوصول البقائي ليست له نهاية، بل هو بداية لا نهاية له"[24]، وعليه فخطاب الشرح بهذا المستوى يكون مستهدفا لكل الفئات **ما** يجعله نصا مفتوحا على ما لا نهاية له من المعاني الدقيقة والإشارات اللطيفة والألطف وإلى ما لا نهاية من مستويات الإدراك والوعي فتجد فيه كل فئة حاجتها، وما يتواءم ووعيها وفهمها التحقيقي.

وحتى يصل ابن عجيبة بوعي المتلقي إلى هذه المرتبة من التحقق بنى خطابه الشارح على منهج قيمي تربوي، دأب فيه على تشقيق لغة الحكم، وتحويل

---

[21] ابن عطا الله السكندري، الحكم العطائية، ج23، ص52

[22] مختار الفجاري، حفريات في التأويل الإسلامي ، دار الكتب الحديثة للنشر، الأردن، ط1، 2007، ص283

[23] ابن عطاء الله السكندري، الحكم العطائية، ج74، ص24.

[24] حسن السمان، مستويات الوعي الصوفي عند ابن عجيبة العارف الشارح. إعمار ندوة الشيخ احمد بن عجيبة المفكر والعالم الصوفي، ص71

مسارها من فضاء الإشارة إلى لغة العبارة، بفعل تواصلي يستنهض وعي المتلقي للسير في طريق معرفي حيث الرحلة داخل مدار أخلاقي يتدرج فيه السالك، من مقام العبادة إلى أحوال القرب الوهبية.

2-3-2. المدار المنهجي ومسارات الفهم عند ابن عجيبة:

يخضع خطاب الشرح العجيبي إلى رؤية عرفانية تستند على تجربة روحية، تتحرك في أفق المعايشة، في مجال حيوي أساسه القرآن والسنة مع اجتهاد في استخراج المعاني الظاهرة والباطنة للحكم، بصريح عبارة أو لطيف إشارة، مستعينا بمختلف أدوات الفهم والتدبير، ومتسلحا بعدد من الآليات وفق منهج إشاري، بنى عليه خطابه الشارح للكشف عن مضمرات الحكم ومقاصدها.

أ. ماهية الشرح الاشاري

درج الدارسون على التمييز بين نوعين من التصوف، تصوف نظري فلسفي(*) وآخر عملي ترجمه الصوفية كسلوكيات فاعلة في واقعهم كعبارة تبطن إشارة بمنهج إشاري فيضي، ولعله الملمح الذي تجده في رد أبي الحسن الشاذلي عندما سئل عن قلة تأليفه فأجاب" أصحابي هم كتبي"[25].

والحديث عن الشرح الإشاري: هو حديث عن منهج قرائي، كثيرا ما وظفه ابن عجيبة في مصنفاته خاصة في تفسيره للقرآن الكريم، فكان يعرف بالتفسير الإشاري، متسلحا بآلياته في بقية شروحه، وفق قراءة تستند على أساس إشارات خفية، دون التخلي عن الظاهر، مع الانطلاق من المعايير السنية في إقرار الباطن أي وفق أبعاد كشفية لا تنفي البعد الشرعي أو عرف اللسان.

---

[25] ابن عطاء الله السكندري، لطائف المنن، ص70 وما بعدها.

* سلكه بعض فلاسفة الصوفية الذين تشبعوا بنظريات فلسفية غربية حاولوا ترويجها وتطبيقها على أساس من القرآن الكريم، محاولين من وراء ذلك إقحام وإخضاع القرآن الكريم لما تتبني عليه نظرياتهم من مقدمات علمية تنقدح في أذهانهم خدمة لفلسفاتهم، كابن في تفسيره وابن عربي في فصوصه وفتوحاته/ ينظر حسن عزوزي، الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير، ج2،ص 261.

وقد كانت مقصدية ابن عجيبة من توظيفه هذا المنهج إحياء قراءة استبطانية لنصوص ما فتئت تمسح بنياتها السطحية مسحا اجترارياً من قبل أصحاب الظاهر، ما جعل ابن عجيبة يوظف آلية النبش في البنيات العميقة، محاولا بلوغ درجة المكاشفة، حيث الحقائق تسفر عن مضمراتها. والمستقرئ لخطاب الشرح العجيبي يجد أن ابن عجيبة ينطلق من مظاهر الخطاب الحكمي (دوائر الخطاب الصغرى) إلى بواطن الظاهر، حيث يتحقق فعل تأسيس (الجمع بين الظاهر/الباطن)، يتم بموجبه تجاوز الاعتبارات الاستدلالية (مظاهر خارجية/داخلية) كعتبات أولى، للمرور إلى مظاهر إشارية بوجوهها التأويلية.

ويمكن إجمال الخطوات التي سار عليها منهج الشرح العجيبي في النقاط التالية:

1- ضابط الاصطلاح

فتقريب مقاصد الحكم، ورفع حواجز عدم الفهم عند المتلقي، لن تتأتى إلا بشرح المصطلحات التي تشكل، والتي اتخذها علامات أولى للمرور إلى الدلالات الإشارية التي رام كشفها وتأويلها.

2- بيان شمولية النسق الحكمي ووحدته

فقد برهن خطاب الشرح العجيبي أن الحكم تنتظم في عقد دلالي واحد، بحيث أن كل حكمة تمهد لما بعدها، وتحوصل ما قبلها؛ فهي خطاب "كله داخل في كله وأوله مرتبط بالأخير من قوله كل مسألة منه تكملة لما قبلها وتوطئة لما بعدها"[26].

[26] أحمد زروق ، شرح الحكم العطائية ، تح عبد الحليم محمود، بين الحكمة الجزائر، ط1، 2010، ص15.

وفي بيان شمولية النسق الحكمي، تسهيل للمتلقي تنظيم مساره السلوكي وتأطير مداره المنهجي.

3-التجربة الروحية

عمل ابن عجيبة على استعادة مقاصد الحكم وتمثلها سلوكيا، عبر الدعوة إلى تفعيل التجربة الروحية، كمعراج روحي يتم بموجبه تحوير الفهم إلى أداء، وفق مسار سلوكي، تتولى فيه تجربة المعايشة تفعيل فكرة الخطاب إلى فعل التزام، حيث يتحقق عبر هذه المعايشة/التجربة تواصلا، ما كان ليؤتي أكله ما لم يشهده صاحبه تحققا. لقد سجل خطاب الشرح العجيبي خطوة إحيائية في عصر مركزية الظاهر وفق جدلية الممارسة الفكرية وواقع الالتزام العملي بها[27]، فابن عجيبة كواحد من السالكين يتحقق بسلوك المعايشة في خطابه إشارة، وعبارة عن طريق تحقيق المعاني الحكمية تحقيقا يؤول به إلى الاستيعاب والفهم، عبر فعل إنتاجي يتم بموجبه فهم المعاني بقدر تحقيقها وتحقيقها بقدر فهمها.

لقد سعى ابن عجيبة إلى تفعيل القراءة عبر تجربة أشمل، يكون الوعي الذاتي مندمجا في أفقها فيخرج الفهم/التأويل صورة لما انتهت إليه التجربة، وهو ما يؤسس لفكرة التجربة الروحية، يقول بول نويا "التجربة الروحية أبرز معدل للاستنباط، فهي الوحيدة التي تتجاوز المنظور النفي، فالصوفية يتلون القرآن الكريم ليعيشوه ويكتشفون في عيشهم إياه منظورات جديدة في كيفية تأويل النصوص المقدسة"[28].

ففعل المعايشة يستبطن به تجربة، ترقى بالصوفي إلى مرتبة المكاشفة حيث يتحقق بالمعرفة التي تنقله من مجال لآخر(يكتشفون في وعيهم منظورات جديدة) ستؤتي أكل تجربة تتحقق عبر التواصل الجمالي، يقول ابن عجيبة في

[27] عبد المجيد الصغير، ماذا بقي من فكر ابن عجيبة، أعمال ندرة الشيخ احمد بن عجيبة، ص26.
[28] بول نويا، نصوص صوفية غير منشورة، دار المشرق، بيروت، 1973م، ص 357

مراحل الترقي عبر التجربة الجمالية: "إن الحق سبحانه وتعالى إذا أراد أن يوصل عبده إليه توجه إليه أولا بنور حلاوة العمل الظاهر، وهو مقام السلام، فيُهْدَى إلى العمل ويفنى فيه ويذوق حلاوته، ثم يتوجه بنور حلاوة العمل الباطن، وهو مقام الإيمان من الإخلاص والصدق والطمأنينة والأنس بالله، والتوحش مما سواه، ويذوق حلاوته ويتمكن من المراقبة، وهذا النور أعظم من الأول... فيحقق بالبقاء لله وبالله"[29].

إن التجربة الروحية المحققة لمقام المشاهدة(البقاء لله وبالله) هي بمثابة ضابط من ضوابط الفهم للخطاب الصوفي/الحكمي، عن طريق تحقيق المعاني تحقيقا يؤول إلى الاستيعاب والفهم، وهو ما لون خطابه بخصوصية التجربة ذاتها عبر إشارات كشفية، وتأويلات عرفانية رفعت حواجز الفهم عن مضمرات الخطاب الحكمي فهما وتحقيقا.

4-الفهم الإشاري ومقاصد التأويل

إن التجربة الروحية التي سلكها ابن عجيبة لتفعيل الخطاب، ما كانت لتؤتي أكلها، ما لم يحسن الشارح تأطيرها بمنهج كثيرا ما وظفه ابن عجيبة وأصبح يعرف به، وأعني به المنهج الإشاري وهو منهج عرف عنه الصوفية عامة، إذ "ظل مرتبطا عندهم بالتلميح والتأويل، وعنوا به عناية خاصة، حتى قالوا: علمنا كله إشارة فإذا صار عبارة خفي، أي خفي سره، فإذا صار عبارة بإفصاح اللسان لم يظهر سره على الجنان"[30].

والمنهج الإشاري الذي سلكه الشارح، يستند على مقولتي الظاهر والباطن إذ ينطلق في شرحه من البنيات السطحية (اللغة التراكيب، معاني الألفاظ) ثم يشير إلى الدلالات الباطنية للبنى العميقة، جامعا بذلك بين العبارة والإشارة،

[29] أحمد بن عجيبة، إيقاظ الهمم، ص63
[30] أحمد بن عجيبة، الفهرسة، ص 44

وساعيا للتوفيق بين الشريعة والحقيقة، وفق منهج علمي دقيق، فجاء الشرح ترجمة لمقولة ابن عجيبة: " أما علم الذوق فهو علمي، ومحط رحلي، فلي فيه اليد الطولى، والقدم الفالج"[31]، والذي عكس مذهبه في التصوف "مدى التزامه بمبادئ التصوف الشاذلي السني في توجهه العام، مقدما لنا في إشاراته منهجا تربويا إسلاميا في تصفية النفس والقلب من العلائق، ووضع قواعد آداب السلوك"[32] ولعلها المقاصد الأساسية التي رامها خطابه الشارح.

خاتمة:

لقد سعى ابن عجيبة جاهدا لتصحيح مفاهيم الخطاب الصوفي وتقريب مقاصده للمتلقي، عبر تمرير مدلول الحكم في مراتب إنتاجية، تنفتح على عوالم خطابات جديدة، تحتكم إلى ضوابط التجربة السلوكية تجربة الفهم، والوعي والممارسة. يقول ابن عطاء الله السكندري "واعلم أن هذه المفهومات المعنوية الخارجة عن الفهم الظاهر ليست بإحالة اللفظ عن مفهومه، بل هو فهم زائد على الفهم العام، يهبه الله لهذه الطائفة، وهو من باطن الحكم المندرج في ظاهرة، اندراج النبات في الحبة وذلك أن المدد النوراني والنفح الرباني يتصل بعضه ببعض على الظرف الظاهر، فحيث انتهت القوة انتهى الإدراك[33].

قائمة المصادر والمراجع

1-**أحمد بن عجيبة:**

-**الفهرسة** ، تح: عبد المجيد صالح حمدان، دار الغد العربي القاهرة، ط1، 1990

[31] المصدر نفسه، ص 101

[32] زبيدة الورياغلي، الشيخ أحمد بن عجيبة ومنهجيته في التسفير أعمال ندوة الشيخ أحمد بن عجيبة، 12،32

[33] ابن عطاء الله السنكدري، الطائف المنن ، في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي، وشيخه الشاذلي أبي الحسن، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 2007، ص95

-**إيقاظ الهمم في شرح الحكم**، تح: عزت محمد، المكتبة التوفيقية، مصر (د-ت)، (د،ط)
-**الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية**، ج1، المكتبة التوفيقية، مصر
2-أحمد زروق، **شرح الحكم العطائية**، تح عبد الحليم محمود، بيت الحكمة، الجزائر،ط1، 2010.
3-أحمد عز الدين خلف الله، **كتاب الحكم لابن عطاء الله السكندري**، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر، ط2، 2005.
4-ادريس بلمليح، **المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضيات**، وحماسة أبي تمام، كلية الآداب الرباط، المغرب، ط1، 1995.
5-ايرزهو لفانغ، **فعل القراءة، نظرية جمالية التجاوب**، تر: حميد الحمداني، وجيلالي الكدية، مكتبة المناهل، فاس المغرب، (د- ت).
6-بول نويا، **نصوص صوفية غير منشورة**، دار المشرق، بيروت 1973.
7-حسن السمان، **مستويات الوعي الصوفي**، عند ابن عجيبة العارف الشارح، أعمال ندوة الشيخ أحمد بن عجيبة، المفكر والعالم الصوفي، منشورات جمعية تطوان، المغرب، ط1، 2006.
8-حسن عزوزي، **الشيخ بن عجيبة، ومنهجة في التفسير**، مطبعة فضالة المغرب ،ط1، 2001.
9-زبيدة الورياغلي، **الشيخ احمد بن عجيبة ومنهجه في التفسير أعمال ندوة الشيخ أحمد بن عجيبة**، المفكر والعالم الصوفي منشورات جمعية تطوان، المغرب، ط1، 2006.
10-ابن عطاء الله السكندري: **الحكم العطائية**، بيت الحكمة للنشر والتوزيع الجزائر، ط2، 2010.
11 لطائف المنن في مناقب الشيخ أبي العباس المرسي، وشيخه الشاذلي أبي الحسن، دار الكتب العلمية لبنان، ط2، 2005.
12-عبد المجيد الصغير، **ماذا بقي من فكر ابن عجيبة**، أعمال ندوة الشيخ أحمد بن عجيبة، المفكر والعالم الصوفي، منشورات جمعية تطوان، المغرب، ط1، 2006.
13-محمد بن عباد النفري، **غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية** تح، عبد الله سليم المختار، دار الكتب العلمية، بيروت،ط2، 2007.

14–مختار الفجاري، **حفريات في التأويل الإسلامي**، دار الكتب الحديثة للنشر والتوزيع، الأردن، ط1، 2007.

15–نادر كاظم، **المقامات والتلقي**، بحث في أنماط التلقي للمقامات الهمذاني في النقد العربي الحديث، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت ،ط1، 2003.

16– أبو الوفاء التفتزاني، ابن عطا الله وتصوفه مكتبة الأنجلو المصرية ط2، 1969.

17- M.R Jauss, Pour une herméneutique littéraire, Trd de L'allemend par Mourice Jacob, paris, 1988.